لمحة الحضارة

الفتوّة والفتيان والفتيانيّة

للفتوّة في الحضارة الاسلامية معانٍ متباينة ترجع الى طبيعة الفتاء اي الشباب، وما قد يصحبها من حسن الخلق وبذل المعروف[1]، والخوية والكرم[2]، او ما يغلب عليها من حب اللهو والقصف ومعاقرة الشراب والانقياد الى الشهوات، كما سيجيء. ولم نجد من اشار الى كلّ منها في كتب اللغة. واقتصرت مجلة لغة العرب في بغداد (٤/١٩٣٠، ص ٢٤١ - ٢٤٩) على شرح «طريقة الفتوّة» وسياقة اخبارها منذ شهرها الخليفة العباسي الناصر لدين الله في بدء القرن السابع للهجرة اي سنة ٦٠٧/١٢١٠، وجعل شعارها «شرب الكاس ولباس السراويل»، ودعا اليها من احب تشريفه من الملوك والامراء والرؤساء في زمانه. وفي زعمها ان لفظ الفتوة في معناها المذهبي مأخوذ من القول المشهور «لا فتى الا علي». وقد انكر ابن تيمية هذه الطريقة المحدثة ووضع فيها رسالة دعاها «الكلام على بطلان الفتوة المصطلحة بين العوام وليس لها اصل متصل بعلي»[3]. ولم يشر احد الى الزمن الذي بدأت فيه هذه البدعة ولا اين نشأت قبلاً افي العراق ام مصر. وقد تقدمت خلافة الناصر بما قد يزيد على قرنين وربما اتخذت احياناً وسيلة او ستاراً للدعوة للفاطميين، وهو ما يُتحصّل من قول ابن الجوزي:

«سنة ٤٧٣ (١٠٨٠م) في ذي الحجة قُبض على انسان يعرف بابن الرسولي الخبّاز وعلى عبد القادر الهاشمي البزّاز وجماعة انتسبوا الى الفتوّة. وكان هذا

١) سُئل محمد ابو بكر البيهقي النيسابوري عن الفتوّة فقال: هي حسن الخلق وبذل المعروف (خزانة اكسفرد Huat. 198 f° 209)

٢) اساس البلاغة للزمخشري، طبعة الدار، ٢: ١٨٤

٣) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٢: ٥٧

ابن الرسولي قد صنف في معنى الفتوة وفضائلها وقانونهـا وجعل عبد القادر المتقدّم على من يدخل في الفتوّة وان يكونوا تلامذته . وكتب لكل منهم منشورًا وقلّده صقعاً ولقب نفسه « كاتب الفتيان » وجعل ذلك طريقًا الى دعوات ومجتمعات تعود لمصلحته وكتب الى خادم لصاحب مصر بمدينة النبي يعرف بخالصة الملك ريحان الاسكندراني قد درّب نفسه لرئاسة الفتيان وصارت المكاتبات من جميع البلدان صادرة منه واليه والتعويل في هذا الفن وقف عليه .

« ومنّ لابن الرسولي ان جعل اجتماعهم بمسجد برانا وكان مسدود الباب مهجورًا ففتح بابه ونصب عليه باباً ورتّب فيه من يراعيه . فعرف ذلك اصحاب عبد الصمد[1] . فانكروه وشكوه الى الديوان وعظموا ما يكون منه وما يتفرع عنه وقالوا : ان هؤلاء القوم يدعون لصاحب مصر ويجعلون ذكر الفتوّة عنوانًا لجمع الكلمة على هذا الباطن . فطالع الوزير عميد الدولة بالحال فتقدم حينئذٍ بالقبض على ابن الرسولي وعبد القادر والكشف عن الحال . ووُجد لابن الرسولي في هذا المعنى كتب كثيرة وكتاب منه الى الخادم المتقدم ذكره فاستخلاه الوزير عميد الدولة وسأله عن الداخلين في هذا الجهل وطُلبوا فقُبض على من وجد منهم وهرب الباقون . وجعل الشحنة والوالي ذلك دليلًا الى الشنقصة[2] وقطع المصانعات عليهم . ونُهبت دورهم ثم أُخذت فتاوى الفقهاء عليهم بوجوب كفهم عن هذا الفساد . »[3]

وقلّ جدًّا من اشار الى هذا المعنى من الفتوّة قبل القرن الخامس . ومن

---

١) ذكر ابن الجوزي « اصحاب عبد الصمد » فقال : « هم اصحاب المساجد » (المنتظم ٨ : ٢٥١ ، طبعة حيدراباد) ونقل من اخبارهم سنة ٥٠٠ ما يأتي : « في شهر رمضان تجدد للعوام المتدينين المتّسمين باصحاب عبد الصمد الزام اهل الذمة بلبس الغيار » (٨ : ١٩٠) ويستدلّ من ذلك انهم كانوا فئة من العامة للتحسين في الدين اجتمعوا على الامر بالمعروف كما كان يقال ، والنهي عن المنكر ، واحياء السنة واقامة رسوم الشرع ولم تقف على شيء من ترجمة زعيمهم عبد الصمد الذي انتسبوا اليه .

٢) الشنقصة لفظة مولدة مصدر شنقص الرجل الخبر اي استقصاه ، عرفت بها طائفة من الجند يقال لهم الشانقصة الواحد شنقاصي ، ويراد بها تتبع الاخبار والتسلط على الناس ومصادرتهم .

٣) المنتظم ٨ : ٢٢٧

تتبع كتب الاخبار والادب يجد ان المراد من الفتوة في اللغة واقوال الكتاب والشعراء كان بضدّ ذلك مرادفاً لمعنى الصبوة ، اي جهل الشباب من اتّباع الاهواء والانصباب على اللذات ومعاقرة الشراب واستماع الغناء والميل الى الغزل والتحدث الى النساء . ولا بأس ان نتوسع قليلًا في ايراد الشواهد الدالة على هذا المعنى . واول ما نذكر منها قول الاعشى في احدى الروايتين :

وكأس شربت على لذّة وأخرى نداويت منها بها
لكي يعلم الناس اني امرؤ انيت الفتوّة من بابها[1]

فجعل شرب الخمر باب الفتوّة .

وللجاحظ في كتابه طبقات المغنين : « وجدنا لكل دهر دولة للمغنين يحملون الغناء عنهم ويطارحون به فتيان زمانهم وجواري عصرهم وخصصنا في ايامنا وزماننا بفتية اشراف وخلّان نظاف انتظم لهم من آلات الفتوّة واسباب المروّة ما كان محجوباً عن غيرهم . »[2]

ومن كلامه ايضاً : « نزع الى الفتوة بعد التوبة والى اخلاق الحداثة بعد الحنكة . »[3] ومن لم يشرب على الريق فهو « نكس في الفتوة »[4] وعدّ المبرّد الغناء من آلات الفتوّة في كلامه على خليلان الاموي فقال : « كان يتغنى ويرى ذلك زائداً في الفتوة . »[5]

ولما اشار المسعودي الى خلافة الوليد بن يزيد قال : « كان الوليد صاحب شراب وفتوّة ومجون »[6] فقرن الفتوة بالهزل والاستهتار .

وفي كتاب الاغاني : « كان العرجي صاحب غزل وفتوّة . »[7] وفي وصف دقاق المغنية « كانت مشهورة بالظرف والمجون والفتوة . »[8] وفي الكلام على

١) غاية الارب للنويري ٤ : ٢٠٥ وشرح المقامات للشريشي ١ : ٢٠٩
٢) طبقات المغنين بهامش الكامل للمبرد ١ : ١٢٤-١٢٥
٣) مختارات فصول الجاحظ ، خزانة بريتيش موزيوم Or. 3138, f° 52
٤) كتاب البخلاء ، طبعة مصر ، ٨٣
٥) الكامل للمبرد ٢ : ٢٢
٦) مروج الذهب ، بهامش نفح الطيب ، ٢ : ٢٦١
٧) الاغاني ، طبعة بولاق ، ١ : ١٥٤
٨) الاغاني ١١ : ٦٨

عمرو الغزال : « كان ظريفاً اديباً نظيف الوجه واللباس معه كل ما يحتاج اليه من آلة الفتوّة. »[1] وفيه ايضاً : « قال رجل من اهل المدينة : ما ذُكر بيت حسّان بن ثابت :

أهرى حديث الندمان في فاق الصبح وصوت المسامر الفرد

الّا عدت في الفتوّة كما كنت . »[2]

ولابي اسحق ابرهيم المعروف بالرقيق النديم في كلامه على والبة بن الحباب: «لو قلت انه سنّ الفتوّة وشرع المنادمة لقلت حقّاً . . . وكان لوالبة اخوان مثله في الفتوّة والظرف وادمان القصف . . . اما عبد الصمد بن المعذّل فسلك طريقة ابي نواس والحسين بن الضحاك فتوةً وظرفاً وإدماناً وشعراً».[3] وجاء في ترجمة اسحق بن خلف المعروف بابن الطيب «كان رجلًا شأنه الفتوّة ومعاشرة الشطّار والتصيّد بالكلاب وايثار اصحاب الطنابير . . . ولم يزل على رسم الفتوّة وضرب الطنبور الى ان توفي في حدود الثلاثين ومائتين»[4]

وكانت بعض الحانات وبيوت الخمّارين معروفة بتردد اصحاب الفتوّة اليها مشهورة باجتماعهم فيها ولذلك قال القلقشندي في تعريفه ما كان كاتب الانشاء الشريف يحتاج اليه « ربما احتاج الى معرفة مصطلح الفتيان فيما يكتب به في دسكرة فتوّة ونحو ذلك »[5].

وهذه الشواهد صريحة في النصّ على معنى الفتوّة قديماً ، وانه كان يُراد بها رسم الشبان الازوال في الطيش والتلذذ بطيّبات العيش ومنها يتضح ايضاً معنى « الفتيان » الصحيح في قول كتاب الاغاني في اخبار المغني الحيري حنين بن بلوع « كان حنين اذا حمل الرياحين الى بيوت الفتيان ومياسير اهل الكوفة واصحاب القيان والمتطرّبين . . استحلّوه ». وقول حنين : « خرجت الى حمص فسألت عن

١) الاغاني ، طبعة بولاق ، ٢ : ٦٤

٢) الاغاني ، طبعة بولاق ، ١٦ : ١٨

٣) قطب السرور في وصف الخمور بريتش موزيوم Or. 3628, f° 46 b, 73 b

٤) فوات الوفيات للكتبي ١ : ١٢

٥) صبح الاعشى ١ : ١٤٦

الفتيان وابن يجتمعون فقيل لي: عليك بالحمامات فانهم يجتمعون بها اذا اصبحوا »[1] وما ندري كيف التبس مدلول هذه اللفظة على من فسّرها في مجلة لغة العرب او علّق عليهـا حاشية الاغاني في طبعة الدار حتى ظنّ كلاهما ان الفتيان هنا « طائفة يدينون بالفتوّة وخصال الرجولة وهم اشدّ الناس احتفالاً بالقرباء واسرع الى اطعام الطعام »[2] وان الفتوّة وهي « استجماع النعوت الكريمة والاخلاق القويمة والطباع السليمة كانت في زمن الامويين ».[3] فهل لم يكن يجد الفتيان وقتئذٍ لممارسة الاخلاق القويمة وخصال الرجولة الا الحمامات وبيوت اصحاب القيان والمتطربين ؟ وكيف التوى المعنى المراد مع دلالة القرينة عليه من ذكر اللهو والطرب والاستحمام ؟ ومع ذلك فلئلا تبقى شبهة في صحة الوجه اللغوي ننقل هنا بعض الشواهد ايضاً على معنى « الفتيان » قديماً قبل ان يُطلق على امثال « البنويّة والاخيّة » الذين ورد وصفهم في رحلة ابن جبير (طبعة ليدن ٢٨٠) وابن بطوطة (طبعة باريس ٢: ٢٦٠ — ٢٦٥) او يتناول احياناً معنى اللصوص كما ورد في ترجمة الفارابي في تاريخ الحكماء للبيهقي (طبعة دمشق ، ص ٣٣).

قال أوس بن حجر الأسدي يرثي فضالة بن كلدة:

ليبكِ الشرب والندامة والفتيـان طرًّا وطامع طمعا [4]

وقال محمد بن ادريس بن سليمان بن ابي حفصة : « قبر الاعشى بمنفوحة وانا رأيته فاذا اراد الفتيان ان يشربوا خرجوا الى قبره فشربوا عنده وصبّوا عنده فضلات الاقداح »[5].

وللحسن بن هانئ :

اذا كان يومي ليس يوم مدامة ولا يوم فتيان فما هو من عمري[6]

وله ايضاً :

يارب مجلس فتيان لهوت به والليل مستلئم في ثوب ظلماء[7]

---

١) الاغاني ، طبعة الدار ، ٢ : ٢٤٦

٢) الاغاني ، طبعة الدار ، ٢ : ٢٤٦ ، حاشية ٤

٣) لغة العرب ٤/٩٣٠ ، ص ٢٤١ و٢٤٢

٤) الاغاني ٨ : ٨٦

٥) قطب السرور المذكور آنفاً ، ص ١٦٨

٦) اخبار ابي نواس لابن منظور ، ٢٢٩

ومن ابيات شواهد النحو :

وفتيانٍ على شرف جميعاً دلفت لهم بباطية هدور
فلا تشرب بلا لهوٍ لانبي رأيت الخيل تشرب بالصفير(١

ومن العقد الفريد لابن عبد ربه :

« قال عبدالله بن صفوان لعبدالله بن جعفر بن ابي طالب : ابا جعفر لقد صرت حجة لفتياننا علينا اذا نهيناهم عن الملاهي »(٢ .

« كانت البغايا في الجاهلية لهنّ رايات يعرفن بها وينتحيها الفتيان »(٣ .

« قال الاوقص المخرومي : قالت لي امي : اي بني انك خلقت في صورة لا تصلح معها لمجالسة الفتيان في بيوت القيان »(٤ .

« قيل للحسن بن هانئ : ما السرور ؟ قال : مجالسة الفتيان في بيوت القيان ومنادمة الاخوان على قضب الريحان »(٥ .

وغنيّ عن القول ان المراد بالفتيان في كل هذه الشواهد معناها اللغوي المشهور لا معناها المذهبي المحدث ، اي الشبان والغلمان الذين لا ارب لهم الا في الاستمتاع بالحياة وطيبها وتتبع اللذات من الشرب والغناء والغزل والتحدث الى النساء . ولذلك قيل « فتياني » لكل من نهج منهجهم من الرجال والكهول . قال الجاحظ : « ادركت رواة المسجديين والمربديين . . . ما يروي عندهم نسيب الاعراب الا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر او فتياني متنزّل »(٦ .

ومن كانت هذه سبيله في التلذذ والتنعم والتقرب والتحبب كان في الغالب ارق اخلاقاً واطيب حديثاً ومذاقاً واشهر كياسة ولطفاً ولذلك نُسب الظرف الى الفتيان والفتاء الى الظرفاء فقيل « فتيانية الظرفاء » ومُدح بها المبرّد في قصيدة لاحمد بن عبد السلام قال فيها :

---

١) العقد الفريد ٣ : ١٩٩
٢) » » ٢ : ١٢٥
٣) » » ٣ : ٢
٤) » » ٣ : ١٩٣
٥) » » ٣ : ٢٢٦
٦) البيان والتبيين (طبعة سنة ١٣١١) ، ٢ : ١٦٤

جليس خلائف وغذيّ ملك واعلم من رأيت بكل أمر
وفتيانية الظرفاء فيه وأنجة الكبير بغير كبر(١

بقي من معاني الفتوّة ما حكاه ابو اسحق ابرهيم المعروف بالرقيق النديم قال: «دعا محمد بن عبدالله بن طاهر رجل من اصحابه دعوة احتفل فيها فلما حضر محمد طالبه بالطعام فطاله ليتلاحق ويتكامل على ما احبه من الكثرة والاحتفال حتى تصرّم اكثر النهار ومسّ محمداً الجوع وتنغّص عليه يومه فشرب عنده اقداحاً وانصرف . . . »

(وسافر بعد ذلك محمد بن طاهر) «فشيّعه هذا الرجل فلما دنا منه ليودّعه قال له : ايأمر الامير بشيء ؟ قال: نعم اجعل طريقك في عودتك على محمد بن الحارث بن بختر فسَلهُ ان يملك الفتوّة . فمضى حتى دخل على محمد بنتة وقال: يقرئك الامير اليك لتعلمني الفتوّة . فضحك وقال : ياغلام هات ما حضر . فجيء بطبق كبير عليه ثلاثة ارغفة من انظف الخبز وثلاث سكرجات سُرمي وخلّ وملح من اجود ما يتخذ من هذه الاصناف فابتدأ بأكل فجاءته فضلة باردة من مطبخه وتداركها الطبّاخ بطباهجة ثم وافاه من منزل حرمه فضلة اخرى واهدى اليه بعض غلمانه جام حلواء فانتظم له امر خفيف ظريف في زمان يسير بغير احتشام ولا انتظار الى ان ادرك الطعام واخذ في الشراب فقال له: اذا دعوت احداً من اخوانك فليكن هكذا عملك ولا تنتظر استكمال الطعام»(٢).

١) ارشاد الاريب لياقوت ٧ : ١٢٩
٢) قطب السرور b ٣٥ f° ,Or. 3628